بعد العبوس أدلة يهجن بها الانتحار ، ويقبحه . وإني ذاكر لك شيئاً من قوله في ذلك ، فاستمع اليه حين يقول : « قد كدت أحق برهط العدم ، من غير الأسف ولا الندم ؛ ولكنما أرهب قدومي على الجبار ، ولم أصلح بخلتي بأبار . وقيل لبعض الحكماء : إن فلاناً تلطف حتى قتل نفسه ، وكره أن يمارس بدائع الشرور ، وأحب النقلة الى دار السرور . فقال الحكيم قولا معناه : أخطأ ذلك الشاب المقتبل ، له ولأمه يحق الهبل ، هلا صبر على صروف الزمان ، فانه لا يشعر علام يقدم ، ولولا حكمة الله جلت قدرته ، وأنه حجز الرجل عن الموت[1] بالخوف من العار[2] والفوت ، لرغب كل من احتدم غضبه ، وكل عن ضريبة مقضبه أن تترع له من الموت كؤوس »

أفرأيت في حديث أبي العلاء كيف سلك سبيل الحكماء ، وكرر معنى ذكره في لزومياته ، ذلك المعنى هو رهبة ما بعد الموت ، وصدها عن ورود حوضه حين يقول :

لو لم تكن طرق هذا الموت موحشة
مخشية لاعتراها القوم أفواجا
وكان من ألقت الدنيا اليه أذى
يؤمها تاركاً للعيش أمواجا

فما هو سر ذلك وما سببه ؟ أكبر الظن أن سر ذلك هو وقوع ذكر الانتحار في الرد على رسالة ابن القارح بعد أن انتهى حديث الفردوس والجحيم . ولقد نرى أبا العلاء يتطاحن خياله ، بل يودعه خياله حين يودع الجنان والنيران ، وحين يأخذ في الرد على ما جاء في رسالة ابن القارح وما فيها من أشخاص يساجله الحديث عنهم ، ويزيد عليه بسطاً في القول ، والمساجلة في الشخصيات وفي تواريخها ، وفي المذاهب والعقائد أبعد شيء عن الخيال ، وأحوج شيء للعبارة البينة في دلالتها ، السافرة عن غرضها

ولكن دانتي يحدثنا عن الانتحار وهو في دوره الثاني من الطبقة السابعة في جهنم فأعمل خياله في تهجينه ، ووصف عذاب المنتحرين وصفاً يبعث في الجلود قشعريرتها ، وفي القلوب هلعها . ومرجعنا بالحديث عن ذلك العدد القادم .

محمود احمد الشنتوى

(١) الألم . (٢) الضياع .

٣ ـ أعيان القرن الرابع عشر

للعلامة المغفور له احمد باشا تيمور

مصطفى باشا الخزينة دار

جركسي الأصل ، اشتراه عزت باشا ، أحد الصدور في زمن السلطان محمود الثاني ، ورباه صغيراً في القسطنطينية ، ثم أتى به الى مصر سنة ١٢٥٣ ، فاشتراه كتخداها عباس باشا بن طوسون باشا بن محمد علي باشا ، وحظي عنده حظوة عظيمة ، وقدمه على سائر مماليكه ، ولما تولى ابراهيم باشا بن محمد علي على مصر سنة ١٢٦٤ استأذن منه عباس باشا في السفر الى الحج فسافر الى الحجاز وأقسم بأنه لا يعود لمصر ما دام عمه والياً عليها ، لوحشة وقعت بينهما ، وأخذ المترجم معه ، فلما وصل الى مكة وأدى فريضة الحج وصل اليه البشير بموت عمه ابراهيم باشا ، وتوليته مكانه ، وصادف ذلك موت خزينة داره راغب أغا المورلي فأقام المترجم بدله وأعتقه ، ولزمه من ذلك الحين لقب الخزينة دار ، ثم جعله رئيساً لمماليكه ، وأنعم عليه برتبة أمير الاي ، ووظف له ألف دينار مصري في السنة ، وعاد معه الى مصر ، فكبر شأنه ، وعظمت منزلته بين الأمراء ، وأمر ونهى في الولاية ، وحل عند سيده بمنزلة كبيرة ، حتى أمر أن يكون أمر المترجم كأمره نافذاً لا يرد في كافة الدواوين ، وكان يقول له انت يا مصطفى مثل أولادي ، والمترجم لا يقابل ذلك إلا بالصدق والاخلاص في الخدمة ، والوالي يوالي بره ، ويزيد في اعزازه ، حتى أمر أن يركب مثل ركوبه في موكب بجند وحاشية ، فاستعفى من ذلك وقال : عبدكم يكفيه ركوب جنديين يستخدمهما في خدمة أفندينا فقبل منه وأعفاه ، وتسامع الناس بذلك فلامه بعض أخصائه على إبائه هذا الشرف العظيم ، فقال له أنتم جهلاء لا تقرأون العواقب ، أما تعلمون انه اذا مات أو غضب عليّ أسلب هذا الشرف وينحط قدري بين الناس ، أفليس الأولى لي أن أبقى على حالة واحدة لا أغيرها ؟

وكان المترجم ميالاً لفعل الخير يسعى فيه جهده ، يروى انه أنقذ نحو ثلاثمائة شخص من القتل والنفي لنفاذ كلمته عند الوالي ،

ويروى أن عباساً باشا غضب مرة على احمد باشا المنكلى ، وكان من جلة القواد ، فجفاه الناس ، وخصوصاً الأمراء على عادتهم مع من يغضب عليهم الولاة ، حتى يبلغ بالواحد انه لا يستطيع المرور أمام دورهم ، واتفق ان المنكلى ذهب يوم العيد الى العباسية لمقابلة الوالى وطلب العفو ، فلقى اعراضاً من الحاشية ونفوراً ، ورآه المترجم على هذا الحال فصعب عليه مكانه لما كان يعلمه عنه من علو المنزلة عند الولاة السابقين ، فأسرع اليه وأكرمه وأمر له بالقهوة والدخان ، وجلس بين يديه متأدباً ، ونمى الخبر لعباس باشا فغضب واستدعى المترجم ووبخه على اكرامه رجلاً مغضوبا عليه منه ، فتلطف معه وقال له : حلم أفندينا أكبر من كل ذنب ، وهذا الرجل تعلمون حسن بلائه فى الخدمة ، وقد جرأنى هذا الحلم بأن سكنت روعه وأخبرته برضاكم عنه ، وانكم دائماً تذكرونه بالخير وتقولون هذا رفيقنا بالشام يوم كنا مع عمنا فى المحاربة ، وأفندينا أكرم من ألا يقبل شفاعة عبده فيه ، فضحك عباس باشا وقال لا بأس عليه قد عفوت عنه ، ثم استدعاه فدخل وقبل الأرض من شدة فرحه ، ودنا منه حتى قبل قدمه ، فأجلسه وبش فى وجهه وقال له انت (ارقداش) ثم صرفه شاكراً مسروراً .

ثم لما مات عباس باشا بقى المترجم خزينة داراً لدائرته زمناً قليلا ، وتولى محمد سعيد باشا على مصر وكان بالاسكندرية فتأخر بها خمسة أيام خوفاً من أن تغتاله شيعة عباس باشا اذا حضر الى القاهرة ، لما بلغه من أن الألفى يريد تولية الأمير الهامى باشا بن عباس باشا ، فتأخر حتى كتب له الأعيان والأمراء بالطاعة وأرسلوا كتابهم اليه ، وفيه توقيع للمترجم ، فاطمأن وحضر الى القاهرة ونزل فى قصر شبرا عند أخيه حليم باشا ، فبات عنده ليلة لم يهنأ فيها بنوم ، وأخبر أخاه انه بلغه عن المترجم ان عنده فى العباسية خمسمائة فارس بسلاحهم ، وانه يخشى من هجومه بهم على القصر قصد اغتياله ، فصرف عنه أخوه هذا الوسواس ، ثم طلب المترجم بعد ذلك الى القلعة وخرج اليه حسن باشا المناسترلى ، وقال له أفندينا يعلم انك رجل عاقل فما هذه الخمسمائة الفارس التى عندك بالعباسية ؟ أتحاول أن تحدث بهم أمراً ، أو تجدد لك ملكا ؟ فقال معاذ الله من ذلك ، إنما أنا عبد من عبيد أفندينا ، وكل ما سمعه عنى زور وبهتان من سعى المفسدين ، وبعد ، فهل هذه الفرسان فى بطن الأرض أو فوق ظهرها ، وكيف تخفى عليكم أمرها ، نحن ليس عندنا غير عشرين فارساً لحفظ قصور الحرم ، فتبين لهم صدقه ، ثم لما أراد سعيد باشا السفر الى دار السلطنة لشكر السلطان على توليته على عادة ولاة مصر من بنى محمد على مع سلاطين آل عثمان وجد خزانة مصر خالية من المال ، فطلب من المترجم اقراضه خمسين ألف دينار من أموال عباس باشا التى بيده فأبى وتوقف وقال : إنما أنا أمين عليها ، وصاحبها الهامى باشا باستنبول ، ولا يجوز لى التصرف فى ماله بغير اذنه ، فتداخل بعض الأمراء فى الأمر ، حتى رضى باقراضه القدر المذكور بشرط أن يكتب صكا به ويوقع عليه ، ففعل وأخذ المال ، ولما حضر الهامى باشا من دار السلطنة أعطاه المترجم الصك وقال له : هذا المال أخذه عم أبيك ، فان شئت طالبته به ، وان شئت تجاوزت له عنه ، فعدت هذه الحادثة من مواقف المترجم المحمودة .

وبقى المترجم خزينة دارا لالهامى باشا حتى رآه ينفق أمواله فى غير وجهها ، فنصحه بأنه اذا دام على هذا الحال لا يبقى ولا يذر شيئاً مما تركه والده ، وأوصاه بالحزم ، وقال له فى عرض كلامه ياسيدى أنا لا أنهاك عن الكرم والاحسان الى الفقراء ، ولكنى أنهاك عن الاسراف والتبذير والانعام على صغار الخدم بهذه الجواهر والنفائس الثمينة التى نراها فى أيديهم كل يوم ، ولما رأى اعراض الأمير عنه وتماديه فيما هو فيه استعفى من منصبه ولزم داره التى بالتبليطة . ثم بدا له السفر الى دار السلطنة فسافر اليها وعلم السلطان عبد المجيد بن محمود بمقدمه فطلبه الى القصر ، ولكنه لم يقابله بل أمر أولاده الأمراء مراداً وعبد الحميد ورشادا باكرامه فقابلوه ولاطفوه ، ثم قيل له ان فى نية السلطان الانعام عليه برتبة باشا وأشير عليه بعدم السفر فلم يوفق للاقامة بل سافر بغير اذن الى الحجاز ، فحج وعاد لمصر ، وكان الوالى سعيد باشا أرسل الى كامل باشا زوج أخته الأميرة زينب هانم أن يراقب المترجم مدة وجوده بدار السلطنة لأنه يوجس من سفره خيفة ، فأعلمه أنه تحقق من أن الرجل ليس له مقصد سوى التنزه والسياحة فقط . وأراد سعيد باشا مرة استخدامه فشكر ولم يقبل ، ولما تولى اسماعيل باشا على مصر أنعم عليه برتبة ميرميران وأمر باستخدامه عضواً فى مجلس الأحكام فاعتذر عن الاستخدام وقال للرسول ان كنتم تجبرونى على الخدمة لأجل رتبتكم فهاك (فرمانها) أرده لأفندينا فاقره اسماعيل باشا على الرتبة وأعفاه من الخدمة .

وبقى بعد ذلك فى داره وينتقل تارة الى ضياعه يراقبها وينفق من غلتها حتى وافاه أجله فمات محمود السيرة عف السريرة قليل الشاكين كثير الشاكرين لا يقطع فرضاً ولا يقصر عن نافلة مع احسان للفقراء وسعة فى النفقة من غير تقتير ولا اسراف ، وخلف ثروة واسعة وأموالاً طائلة من غير عقب لأنه لم يتزوج فى عمره إلا بنت راغب أغا سلفه فى الخزينة دارية ، وكان إلهامى باشا أراد أن يزوجها لشكيب باشا مدير ديوان الأراضى الأميرية فلم تقبله واختارت المترجم فتزوجها وانتقل الى دارها فأقام معها نحو ثلاثة أعوام ثم فارقها بكراً لم يبن بها رحمه الله تعالى .

الشيخ محمد أكرم الأفغانى

هو الشيخ الأجل ، والعالم العامل ، القدوة الورع ، نزيل القاهرة أصله من القبيلة الافريدية النازلة فى مضيق جبل حيدر المشهور الآن بجبل خيبر الفاصل بين الهند وبلاد الافغان ، ولد ونشأ به ، ثم رحل الى الهند لطلب العلم وهو فى الحادية والعشرين ، فورد لكنهوه وهى حافلة بالعلماء ، فقرأ العربية والمنطق والحكمة والعقائد والتصوف والفقه الحنفى والطب والرياضيات على الطريقة القديمة حتى صار من الفحول المشار اليهم مع العفة والتقوى والتشدد فى الدين . ثم سلح فى أغلب بلاد الهند وجعل أكثر اقامته فى لكنهوه ، ثم بدا له السفر الى الحجاز لقضاء فريضة الحج فسافر اليه حوالى سنة ١٢٧٢ وبعد قضاء المناسك ورد على مصر ونزل بالأزهر برواق الافغانية المشهور برواق السليمانية ، فاجتمع به هناك جلة العلماء مثل الشيخ حسين المرصفى وغيره ، وبلغ خبره محمداً افندى الافغانى المشهور بالكشميرجى تاجر المطارف الكشميرية بجوار خان الخليلى فاجتمع به وصوب له الانتقال الى مكان فوق حانوته فاكترى به محلا وانتقل اليه وأقام به نحو تسعة أشهر ، وتسامع به الأكابر مثل حسن باشا المنسترلى كتخدا مصر واسماعيل باشا عاصم ، فسعوا اليه وزاروه ، وبلغ خبره الأمير احمد باشا رفعت ابن ابراهيم باشا والى مصر من محمد افندى الافغانى فاشتاق لرؤيته ، الا أنه كان على قدم السفر الى ضيعة له فأرسل له خمسة وعشرين ديناراً حباه بها .

ثم سافر المترجم الى دار السلطنة واجتمع هناك بعارف حكمت بك الذى كان شيخاً للاسلام وبغيره من العلماء ، فظن عارف بك أن مجيئه لطلب منصب علمى أو فتح (تكية) أو نوال صلة ، وسأله عن ذلك ووعده بالمساعدة فعرفه المترجم حقيقة أمره ، وانه ما ورد الا للسياحة . وأقام بدار السلطنة نحو عشرة أشهر ، ثم سافر منها الى الشام ، ومر بأزمير وتسامع به علماؤها فحضر له كبيرهم الى السفينة ، وسأله النزول وألح عليه فقبل ، وأقام عندهم عشرة أشهر أخرى قرأ لهم فيها دياجة الفتوحات المكية . ثم سافر على غير رغبتهم الى الشام ، فلقى من علمائها اكراماً زائداً واحتفالا كبيراً لا سيما من كبيرهم الشيخ سليم العطار ، وتلقوا عنه بعض رسائل منها تشريح الافلاك فى الهيئة ، وفصوص الحكم لابن العربى ، ثم أراد الشخوص الى بغداد ، ولكنه استصعب السفر اليها براً لكبر سنه وبدانة جسمه ، فعول على السفر اليها بحراً ، وأتى مصر بنية السفر منها فى البحر الأحمر وخليج فارس الى البصرة ومنها الى بغداد ، فلما وردها أنزله السيد احمد الحسينى شيخ طائفة النحاسين بداره وقام بشؤونه أتم قيام ، وتراخت عزيمة المترجم عن السفر ، وبدا له أن يتخذ القاهرة دار اقامة ماشاء الله تعالى فانتقل الى مكان اكتراه بخان الخليلى وأقام به بضع سنوات منكمشاً عن العالم مقبلا على شأنه ، مواظباً على الاقراء والتدريس ، ولم يكن معه غير أحد تلاميذه ، وعلى هذا التلميذ قرأ شيخنا العلامة الشيخ حسن الطويل خلاصة الحساب لبهاء الدين العاملى .

ثم لما كانت ولاية اسماعيل باشا على مصر أجرى على المترجم عشرة دنانير فى الشهر تصرف له من الحكومة ، واستصوب أبو بكر راتب باشا ناظر الأوقاف اذ ذاك انتقال الشيخ الى مدرسة محمد بك أبى الذهب التى بجوار الأزهر فانتقل اليها وسكن بها فى قاعة الشيخ الصبان الذى كان موقتاً لهذه المدرسة ، وأقام المترجم بها نحو أربع سنوات ، ثم وافاه أجله المحتوم فى ربيع الثانى سنة ١٢٨٧ ، وقد جاوز التسعين ودفن ببستان العلماء فى مقبرة المجاورين ومات من غير عقب لأنه لم يتزوج فى حياته .

وكان ربعة أبيض اللون واللحية كثها ، كبير الهامة ، بديناً مهيباً اذا سار فى الطريق قام له الناس من يعرفه ومن لا يعرفه ، حليما متواضعاً عفيف النفس زاهداً ، مع كمال عقل وحسن فراسة . وكانت له اليد الطولى فى كافة العلوم ، وكان الشيخ مصطفى العروسى شيخ الأزهر يعرف له قدره ، ويزوره بمدرسة محمد بك . ولما مات الشيخ الباجورى وبقى الأزهر بلا شيخ اكتفاء بالوكلاء ، ولهج الناس بضرورة اقامة شيخ قال الشيخ الأشمونى لو استشرت فى ذلك مارضيت بسوى الشيخ محمد أكرم ، فانه رجل له جانب مع الله ، وبلغ المترجم قوله فتبسم وقال مالى وازهرهم ، لو عرضوا على ولاية مصر ماقبلتها ، رحمه الله تعالى رحمة واسعة .